# كيف يرى طلاب العربية لغتهم؟

د. هبة هلال

## مدخل

**يتداول المفكرون والفلاسفة الأجانب مفهوم الهوية اصطلاحا وعلاقته باللغة، أو بعبارة أخرى أثر اللغة في تشكيل الهوية منذ أواخر القرن الثامن عشر؛ إذ يبرز "فيخته" (١٧٦٢ - ١٨١٤م) الذي كان يرى في اللغة العامل الطبيعي الأول لأمة من الأمم، ويعضده "هومبلت" (١٧٦٧ - ١٨٣٥م) الذي ربط بين العرق والشخصية القومية واللغة ربطا حميما؛ مما شكل عنده ما يسمى "عبقرية الشعب"(١). وهذا التداول هدف إلى رسم ملامح وجودهم ورؤيتهم للآخرين، لاسيما مع المد الاستعماري الذي أدخل شعوب أوروبا "في اتصال مباشر وقوي بشعوب غير أوروبية أكثر من أي وقت مضى منذ الإمبراطورية الرومانية ..... إن مقياس البحث للاختلافات العرقية والثقافية لدى البشر فرض نفسه على العقل الأوربي، مثيرا فضولا أنثروبولوجيا، ومطالبا بتفسير تاريخي معقول"(٢).**

هذه الأسباب الداعية لمناقشة قضية الهوية (المتعلقة بإدراك الذات والآخرين) والعوامل المؤثرة بها هي بالأحرى تدفعنا نحن - العرب - لتأمل هويتنا في العصر الحديث، وتظهر اللغة العربية في هذا النسق عاملا من أهم عوامل تشكيل الهوية العربية، رغم أن اللغة لم تكن دائما هي العامل المشكّل للهوية في أدبيات البحث الغربي عبر أطواره المختلفة؛ لأن العربية تختلف عن لغات العالم المتحضر بخصائص لم تتوافر لغيرها، ولست هنا في معرض تفصيل مزايا العربية أو جوانب تفوقها، إنما أحاول فقط أن ألتمس الخيوط التي توصلنا لمبتغانا، فالعربية في أظهر خواصها تنماز بالقدم المترابط؛ وأقصد به وجودها - كما يقرر علماء الساميات- منذ حوالي قرن ونصف قبل البعثة المحمدية في حالة مكتملة ناضجة، وبالتحديد عام ٣٢٨م؛ حيث عثر على أقدم نص عربي، "ولغة هذا النص هي لغة الآداب المتأخرة تماما على وجه التقريب"(٣)، ومع هذا القدم تتواصل مراحلها التاريخية وتتطور دون انقطاع لطور عن طور؛ لذا كان من أهم مفاخر الأمة العربية معالجة النصوص اللغوية، شعرية كانت أم نثرية، الراجعة إلى خمسة عشر قرنا فائتا، وفهمها، وهو ما لا يتوافر لغيرها.

ذاك التاريخ المتتابع الطويل للعربية أهّلها أن تكون أهم عرى الاتصال بين الأمة العربية؛ لأنها بتاريخها تحمل تراثا ضخما من ألوان الفكر والمشاعر لوارثيها، وقبل كل ذلك رؤية خاصة للحياة والكون، تصبغ كل من ينتمي إلى العربية. إننا نجد من مسلمات الفكر العربي ظواهر إجارة الملهوف والمظلوم، وإكرام الضيف، والانتماء إلى الجماعة، وهي صفات غرسها تفاعل العربي مع بيئته، وطبيعة شخصيته، وتمثلت في لغته وكم المفردات المعبرة عن الدعائم المشار إليها، ثم أصبحت اللغة هي الحاملة لهذا التراث الثقافي من جيل لآخر، تشارك بقية العوامل الأخرى في غرس تلك الملامح في كل عربي؛ بوصفها الوعاء الذي يحمل كل خبرات الجماعة وتجاربها من خلال ألفاظها وتعبيراتها، "إن لكل لغة بنية خاصة تمثل تمثيلا صادقا البنية الفكرية والشعورية للجماعة اللغوية، ومن الثابت أن هذه البنية اللغوية ذات علاقة وثيقة بعقلية المتكلمين، ونظمهم، وبيئتهم الثقافية"(٤).

فالعربية تحمل تراثا طويلا تطبع به كل عربي، لغة أولى له، ترسم ملامح تعامله مع مفردات الكون، فاللغة الأولى "هي التي تختزن المشاعر الأولى، والأفكار الأولى والتشكيلات الأولى للكون من حول الإنسان..... ومن منظورها تتحدد مفاهيم المباح والمحظور والملاطفة والمخاشنة والرضا والإنكار، وانفتاح أبواب الفهم أو انغلاق مفاتيحه، وإلى هذه المفاهيم الأولى، ترتد أية مفاهيم تالية يمكن للإنسان أن يحصلها من اللغات المكتسبة في مراحل تالية من العمر"(٥).

أما اللغات الأروبية التي تفرعت عن اللاتينية فتعد لهجات للأخيرة، ظهرت في استخدام كل منطقة من مناطق أروبا، ثم بدأ تقييدها والاعتراف بكل منها لغة

رسمية والتأليف فيها بداية من القرن الخامس عشر الميلادي، حيث بحث دانتي عن اللغة العامية المثلى للشعب الإيطالي في كتابه عن فصاحة اللغة العامية، وألف أنطونيو نيبرخا كتاب "النحو الإسباني" الذي يعد "أول نحو مهم للغة أروبية حديثة"(٦) عام ١٤٩٢م، وتوالت بعدها المؤلفات التي تقعد لباقي اللغات الأروبية؛ مما يعني أننا أمام لغات انفصلت عن أصلها في استعمال العامة منذ زمن طويل يسبق التقعيد لها، ويعني كذلك ابتعاد كل لهجة عن أصلها بالقدر الذي يجعلها غير مفهومة لأي مواطن أروبي إلا عن طريق الدرس والتعلم.

وبالنسبة إلى نزول القرآن الكريم بلسان العرب فهو ميزة إضافية للغة العربية؛ حيث ضمن أن العربية تنتشر انتشار المسلمين في كل بقاع الأرض، فأصبحت العربية لغة شعائر الإسلام وعباداته، ولعل السبب الرئيسي في ترابط المراحل التاريخية للغة العربية المحافظة على المستوى اللغوي الذي نزل به القرآن؛ ومن ثم فقد كان نزول القرآن الكريم بلغتها تشريفا لها وحفظا، ومن جانب آخر نشرا لها على مدى لم تكن لتحققه وحدها.

لكن لا بد لنا من إشارة مهمة في قوام هذا البحث، مفادها أن الهوية العربية لا تتطابق مع الهوية الإسلامية، إننا نعترف بترابط العربية بالإسلام، وأهمية كل منهما للآخر، والتقائهما في نقاط كثيرة، لكن تظل الهوية العربية تطلق على كل من يتكلم العربية لغة أولى بغض النظر عن ديانته، وهذه الهوية يتحدد أتباعها جغرافيا من الخليج إلى المحيط، فيما يعرف بالوطن العربي. أما الهوية الإسلامية فأساسها الديانة الإسلامية، والعربية فيها ركنا أصيلا، وهي غير محددة جغرافيا؛ إذ تنطبق على كل مسلم في أجناب الأرض، وتتمثل دوليا بالمنظمات الإسلامية المختلفة، وهكذا تصبح اللغة العربية نقطة تماس بين هويتين عظيمتين: العربية والإسلامية، وقد تتوافر الهويتان للمسلمين العرب داخل الوطن العربي، وهو ما يؤدي إلى التكامل بينهما. وقد قصدت إلى إبراز تلك النقطة لأن لها ما يبررها في مناقشة إجراءات البحث ونتائجه لاحقا.

## هدف الدراسة

إن الهدف المرتجى من وراء هذه الدراسة استبطان الخلفية المعرفية لدى طلاب الجامعة حول اللغة العربية، من خلال محورين يقومان على الأهمية والمشكلات، ومن ثم جاء عنوان البحث: كيف يرى طلاب العربية لغتهم؟ فالرؤية تتعلق بالمعتقد العقلي المُقْتَنَع به، وطلاب العربية أقصد بهم مَن تخصص في دراستها في المرحلة الجامعية، فأصبحوا أشد التصاقا بها ودرسا من غيرهم في التخصصات العلمية الأخرى، وتتجلى أهمية هذا البحث في تحليل إجابات الطلاب واستنباط ما تقوم عليه من أسس معرفية حول اللغة العربية، تعكس في المقام الأول مكانة اللغة العربية لدى هذا الجيل، وتنقل لنا وجهة نظره حيال مشاكلها، بعيدا عن التكهنات الذاتية أو الافتراضات الشخصية، وهو ما يمكّننا - من ناحية أخرى - من بناء منظومة من نشاطات وتفاعلات، مستغلين خواص المرحلة الجامعية، تقوّم ما في هذه النظرة الطلابية من خلل، وتصلح ما يدعو إلى إصلاح، وتدعم- كذلك - ما يظهر من عناصر قوة فيها وتضيف إليها. وتزيد أهمية البحث حين تكون العينة الطلابية المطبق عليها من طلاب كلية التربية، فهم بعد حين سيصبحون معلمين للغة، وسوف يساهمون في تشكيل الاتجاه اللغوي لدى الصغار؛ مما سيؤدي إلى حل المشكلة أو تفاقمها، تبعا لنظرتهم للغتهم واعتقادهم فيها.

والحقيقة أن فكرة هذا البحث جاء من تساؤل دار في الذهن حول كم المقالات والكتب والندوات والمؤتمرات التي تزخر بها مجتمعاتنا وتدور في فلك مناقشة التحديات التي تواجه اللغة العربية، ومن ثم الهوية والثقافة، وكل ما يرتبط بهما من دوائر تخص الشخصية العربية، ولا نجد تأثيرا ملموسا على أرض الواقع، فهل تتحمل الإدارة في الوطن العربي كامل العبء عن هذا الإخفاق؛ أو أن صوت النخبة المثقفة العربية لا يجد له من الذيوع ما يليق بجدوى القضية وخطر الموقف بين الأجيال الشابة، وهي التي ستحمل لواء القضية بعد حين، ولاسيما أن جيل التقنية الحديثة قد يجد حلولا لمشاكل الماضي بتفتحه وتطوره، بالإضافة إلى أن جزءا من القضية يقع بين يديه؛ ممثلا في لغة التقنية الحديثة ومواقع التواصل الاجتماعي التي لو تفادى استخدام غير العربية خلالها سيكون انتصارا كبيرا للغة والهوية معا.

## إجراءات الدراسة

طُرح سؤالان على الطلاب، وطولبوا بالإجابة عنهما كتابة، وهما:

١- هل للغة العربية أهمية من وجهة نظرك؟ وضح إجابتك بالأدلة.

٢- هل تواجه اللغة العربية مشاكل؟ وضح إجابتك بالأدلة.

وقد تم صياغة الأسئلة وفق هذا النسق العام لأن بعض الطلاب قد يجيب مقلدا أو متابعا ما يسمع دون اقتناع حقيقي أو منطقية في العرض، فالسؤال الأول بدأ بإطلاق المسلمة الأساسية، ألا وهي أهمية اللغة العربية، وعدم فرض وجود أهمية للعربية، واحتمال وجود معتقد محتمل لدى أحد الطلاب ينفي هذه الأهمية، وكذا اتبع السؤال الثاني منهج الإطلاق وعدم افتراض أية مسلمة مسبقة، وكان من تنبيهات الأسئلة التريث قبل الإجابة، وكتابة كل طالب ما يؤمن به حقا دون تجميل أو زيف، وأفدتهم أن الأمانة في الإجابة عن هذه الأسئلة سوف تفيد في بناء المقررات الملائمة لهم. وقد تم تحليل ثلاثين رأيا من آراء الطلاب، تشتمل على الإجابة عن السؤالين السالفين، متضمنة- أي الإجابات - في بعض الأحيان غير نقطة لكل سؤال. وقد جاءت الإجابات عن السؤال الأول الخاص بأهمية اللغة العربية مرتبة تبعا لعدد ورودها كالتالي:

١- لغة الإسلام ١٠٠٪
٢- لغة ثرية مرنة بليغة ٣٠٪
٣- لغة تواصل الشعوب العربية ٣٠٪
٤- لغة الحضارة العربية وتراثها ٢٠٪
٥- لغة قديمة مرت بمراحل متعددة ١٣,٣٪
٦- لغة قومية تمثل هوية العرب ١٠٪

## ملاحظات أولية:

١- أثبتت جميع الآراء أهمية اللغة العربية، مما يعد نقطة إيجابية في القضية اللغوية.
٢- لفظ (قومية) ذكر مرتان (لدى طالبين فقط)، ولفظ هوية مرة واحدة.
٣- وصف اللغة بأنها "بليغة" وصف غامض مضطرب؛ إذ يرتبط في إجابات الطلاب بدراسة الشعر والمجاز، وكأن هذا المجاز خاص باللغة العربية وحدها، كما أن دقة الألفاظ وفصاحتها ليستا من صفات العربية وحدها.
٤- من بين أسباب أهمية العربية رأي يعتقد أنها تضفي الاحترام على متحدثها، ولعل المقصود أن التحدث بالفصحى يطبع المرء بطابع الثقافة ورقي التعليم.

## مناقشة الآراء:

تتمثل الأهمية الأولى والمتفق عليها للغة العربية لدى طلابها في أنها لغة الدين الإسلامي، ويصل الأمر إلى تبني بعض منهم - تصل نسبته إلى ٢٣,٣٪ - ذاك العنصر عنصرا وحيدا في خانة الأهمية وذلك بسبب اعتناق الطلاب للإسلام، وهنا تأتي مناسبة الإشارة في بداية البحث، التي تقضي بأهمية التمييز بين دائرة الهوية العربية ودائرة الهوية الإسلامية، فكل منها له ما يميزه ويختص به، بالإضافة إلى أن خطر التطابق بينهما يؤدي إلى استبعاد جهود العرب غير المسلمين للغة العربية(٧)، ونسيان أن اللغة العربية إنما انتشرت في أرجاء المعمورة في عصر الحضارة العربية لأنها لم تكن تعني الإسلام؛ أي لم تكن سيطرة العربية على الدولة الإسلامية بسبب الدين الإسلامي، ولكنها بسبب مبدأ في الثقافة الإسلامية يدعو للحرية في اختيار العقيدة، ومن ثم "فتح المجال أمام شعوب كثيرة أن تدخل طواعية تحت مظلة هذه الهوية الجديدة، دون أن تكون مضطرة إلى تغيير عقائدها"(٨).

إن تأثير الطائفية البغيضة قد يشوب المبادئ التي لا مراء فيها، ومن هنا لابد أن ننبه ونلفت الأجيال الشابة إلى أن العربية لا تقتصر على الإسلام والمسلمين فقط، بل هي لكل عربي غيور على لغته. ومن العجب أننا نندهش حين يرغب طالب يدين بالمسيحية في الالتحاق بأقسام اللغة العربية في الجامعة، هذا العجب في ذاته جهل، جهل بحدود الهوية العربية، وجهل لأننا قد نحرم العربية جهودا يقوم بها ذوو الهمم من العرب غير المسلمين.

أما بقية عوامل أهمية اللغة العربية فكانت مضافة لمبدأ عربية الإسلام، وكان أكثرها حضورا في إجابات الطلاب ثراء اللغة العربية ومرونتها وبلاغتها، وهي انطباعات يمكن أن يكون مصدرها دراسة الطلاب لآداب العربية أو سماعهم شيئا من هذا القبيل، وما يحملني على هذا الرأي أن الإجابات جاءت مقتضبة دون شرح واف أو تفصيل، وما يمكن أن نضيفه في هذا الصدد أن ثراء اللغة يقع في جانب المفردات وتنوعها، وهو ثراء جعل العربية مصدر فخر لكثيرين من العرب، وأُسِّس عليه منطق الإدراك الواسع للعربي(٩). ويوسم النظام الصرفي العربي بالمرونة؛ لأنه قادر على توليد عدد كبير من الصيغ للمادة اللغوية الواحدة مع اختلاف المعنى في كل منهما، "وحسبنا أن نلاحظ في تركيب المفردات من الحروف أن الوزن هو قوام التفرقة بين أقسام الكلام في اللغة العربية، وأن اللغات السامية التي تشارك

هذه اللغة في قواعد الاشتقاق لم تبلغ مبلغها في ضبط المشتقات بالموازين التي تسري على جميع أجزائها وتوفق أحسن التوفيق المستطاع بين مبانيها ومعانيها"(١٠). أما البلاغة فهي صفة للغة العربية نابعة من حسن تنظيم الكلم ونظمه موافقة للمعنى، وليست البلاغة صفة ملازمة للعربية على عمومها، لأن العربية وردت بها النصوص الركيكة كما ورد بها النص المعجز، وما نصوص اللغة العربية في عصر ضمورها وانكماشها ببعيدة عنا"(١١).

ويأتي في المرتبة نفسها (من حيث النسبة المئوية) كون العربية لغة التواصل بين الشعوب العربية؛ مما يعد أهم أسس الهوية المشتركة، التي توسمهم- كما أشرت في صدر البحث- بصفات فكرية ووجودية واحدة، فاللغة ليست أداة للتفاهم بقدر كونها بوتقة إدماج وصهر، والتمسك بالفصحى هو السبيل الأمثل للعرب في ظل العوامل الدخيلة المتعددة. إن الوقوع في دائرة اللهجات المحلية يفضي إلى مزيد من التباين بين العرب والتواصل بينهم، ويكفي أن نشير إلى صعوبة فهم بعض البرامج التليفزيونية العربية التي تتخذ اللهجة المحلية لغة لها إلى الحد الذي يجعل معدو البرنامج إلى كتابة الألفاظ العربية المنطوقة؛ حتى يتبين المشاهد معناها، وكأنه يترجم لتلك اللهجة؛ اعترافا منهم بصعوبة الفهم.

ويظهر في المرتبة التالية من الأهمية أن العربية لغة التراث والحضارة العربية، وهي نقطة إيجابية نجدها في آراء الطلاب، استمدها الطلاب من معالجتهم للتراث وكتبه، هذه الحضارة لابد ألا تقف في منطق الشباب وعقله عند حدود التعامل معه، أو فهمه على حد قولهم، إنما الاستفادة الحقيقية منه تقع - أولا - بإدراك قيمته وسط الحضارة العالمية وتاريخها، وثانيا بتنميته والبناء عليه، وثالثا - وهو الأهم - على فهم طبيعة هذا الإرث الثقافي فهما يمكننا من فهم أنفسنا وهويتنا. إن التعامل مع التراث يتم في أحسن الأحوال عن طريق نقول وإحالات عليه، في صورة أقوال مجردة تقف عند حدود الاستدلال، دون فهم الصورة كاملة، أو النظر نظرة فوقية شاملة تعكس طبيعة هذا التراث وروحه، التي هي في الحقيقة روحنا نحن، ومن ثم فإن أي محاولة لإحياء هذا التراث بين الأجيال بدون هذا المنطلق تعد من محاولات الهدم لا البناء.

إن العربية حملت موجات متتالية من التطور مرت على الإنسان العربي، بدءا بوجوده في البيئة الصحراوية وما وسمته بها من طبائع ومزايا، ثم جاء الإسلام بكل مفاهيمه وطاقاته ليضيف للعربية بعدا جديدا بكل ما ضخه فيها من مفاهيم ودلالات، ثم نرى الانفتاح على الثقافات الأخرى وحركة ترجمة العلوم التي بدأت في القرن الثاني الهجري، فثبتت أركان العربية لغة علم وحضارة قرونا طوالا، ثم ركود متدرج لأهلها بلغ ذروته في القرن السادس عشر مع الاحتلال العثماني للوطن العربي، ثم احتلال أجنبي لأجناب العالم العربي، وأخيرا محاولات هز ثوابته، وغزو ثقافته في احتلال أعمق من الاحتلال العسكري، وفي كل مرحلة من المراحل تجدد للغة وألفاظها ومجازها بتجدد العقل والحياة عامة. إن هذا الإرث الضخم المتصل لتاريخ العرب والعربية معا هو ما يطبع الهوية العربية بطابعا متمايزا عن غيره من الهويات التي توحد بين المنتمين إليها بوسائل أخرى أقل فاعلية من اللغة.

والرأي التالي يتصل بقدم اللغة العربية، وموضوع هذا القدم تزيد فائدته مع اتصال مراحله بعضها ببعض، وعدم انفصام عرى هذه المراحل طوال ستة عشر قرنا، لأن القدم لو كان هو المعيار لشاركتها فيه اللاتينية، ولكن العربي يستطيع أن يتواصل مع النصوص العربية القديمة دون كبير عناء، بعكس أي مواطن أروبي لا يستطيع التعامل مع نصوص اللغة اللاتينية دون دراسة وسابق تعليم، وهذه النقطة يعيها الطلاب من تعاملهم مع نصوص ترجع للعصر الجاهلي، وهو ما رسم لديهم ملامح قدم العربية، ولكنه عنصر لم تذكره سوى نسبة قليلة من الطلاب؛ مما يدعو للحيرة، فهل يعتقدون موضوع القدم منطبق على اللغات الإنسانية جميعا، إن الواضح أن هذه القضية تحتاج إلى فضل بيان في مقابلة العربية بغيرها، التي ستبرز الأهمية التاريخية المتصلة للعربية.

أما آخر الآراء نسبة في الورود كون العربية تمثل الهوية العربية وتعكس القومية العربية، ما يضع أيدينا على الكارثة الحقيقية، لأن غياب هذه الغاية المهمة عن ذهن الشباب تنفي محورا من محاور أهمية العربية على المستوى القومي، لقد اقتنع المفكرون منذ أمد طويل أن من بين أولى العقبات وأخطرها التي يجب تخطيها من أجل التأسيس لهوية قومية تلك التي تتمثل في عدم وجود لغة قومية"(١٢)؛ مما يستلزم توضيح المصطلحات لهم(هوية - قومية - أمة)، وغيرها من المصطلحات الجامعة للشعب العربي ومنطقه. إن معرفة الطلاب السابقة وإدراكهم أن من

عناصر أهمية العربية كونها لغة تواصل الشعب العربي كما ورد سابقا، يمكن أن تتخذ مدخلا يتم التأسيس عليه لإيصال فكرة الهوية الضائعة لدى الطلاب وفكرة القومية العربية، محاولة لإنماء روح الجماعة لديهم.

والحق أن آراء الطلاب قد أوضحت أن الخلفية المعرفية لدى الطلاب ليست خالية الوفاض في شأن أهمية العربية، ولكنها تحتاج إلى إكمال بعض جوانبها، والتركيز على بيان الصورة الكبرى لتلك الجزئيات المتناثرة.

**أما السؤال الثاني عن مشاكل اللغة العربية، فكانت نتائجه كالتالي:**

١-ازدواجها مع العامية ٣٣,٣٪
٢-طغيان مفردات اللغات الأجنبية عليها ٣٣,٣٪
٣-رداءة أسلوب تعليمها ٢٠٪
٤-صعوبة قواعدها ١٣,٣٪
٥-ضعف الاعتزاز بها ١٣,٣٪
٦-محاربتها من الغرب ١٣,٣٪
٧-الاستخدام الخاطئ لها نطقا وكتابة ١٣,٣٪
٨-انتشار الجهل بها ١٠٪
٩-تراجع العرب علميا ١٠٪
١٠-انحسار استخدامها في التقنية الحديثة ١٠٪

**ملاحظات أولية**

١-أثبتت جميع الإجابات وجود مشاكل للعربية، لكنها لم تُجمع على عامل واحد كما حدث سابقا.
٢-ذكر رأيٌ واحد أنها أصعب اللغات عالميا، وواضح معاناة صاحب هذا الرأي من معوقات حقيقية في دراسة العربية.
٣-رأي آخر يرفض تدريس اللغة الإنجليزية لطلاب قسم اللغة العربية في الجامعة، مبالغة في الحفاظ على العربية بعزل دراستها عن اللغات الأخرى، ولا يدري أن تأكيد أهمية العربية لا ينفي تعلم اللغات الأخرى.
٤-رأي آخر يرفض تدريس اللغة الإنجليزية في مراحل التعليم الأساسية، وهو ما يعد في صلب مشاكل العربية في الوطن العربي، لأن تشكيل الملامح الأولى لفكر الإنسان تبدأ من خلال تعلمه لغته وثقافته وإجراءاتها.
٥-من اللافت إشارة أحد الآراء إلى عدم جدوى تعلمها على المستوى الاقتصادي، فليست العربية من متطلبات أي وظيفة على مستوى الوطن العربي - سوى معلم اللغة العربية بالطبع - ، وليس إتقان العربية من ضمن نقاط القوة أو التزكية في أي سيرة ذاتية، ومن ثم انعدام الدافع النفعي لتعلم العربية. إن الأجيال الشابة تسعى لبناء مستقبلها في المقام الأول، وتسعى إلى اكتساب كل ما يمكنها من معارف وخبرات يحتاجها سوق العمل، وللأسف ليس من بينها إتقان العربية، إن حب العربية وضرورة تعلمها لابد أن يُغرس في نفوس أبنائها منذ صغرهم؛ بحيث لا يكون الأمر اختيارا أو مطروحا للمناقشة؛ أي لابد أن يصير من المسلمات، حتى لا نقع في النهاية في مأزق: ماذا سنستفيد من تعلم العربية؛ لأنه سؤال لا يليق بأبناء لغة، فما بالنا بمعلميها؟!

**مناقشة الآراء**

إن نظرة قارئة لكل ما ذكره الطلاب من مشاكل العربية تشي بوعي كبير للقضية وأبعادها، وإن لم تستغن عن بعض الضبط والإكمال، فالعنصر الأول - على سبيل المثال - الذي ورد فيما يقرب من ثلث العينة: الازدواج اللغوي الكائن في المجتمعات العربية بين العامية والفصحى، وغلبة العامية في مجال الاستعمال الحياتي بين أفراد المجتمع، واقتصار الفصحى على المستوى المكتوب، ولغة بعض المثقفين في الإعلام أو المحاضرات، وهو أمر لا يزعج إذا علمنا أن ظاهرة العامية موجودة في كل لغات العالم(١٣)، فكل لغة لها مستواها الفصيح الموافق للقواعد اللغوية، ومستواها العامي المستعمل في التعامل اليومي. والحاصل أن جل ما يقوم به علماء اللغة هو محاولة تقييد الفجوة بينهما، والاستفادة من كل الاستعمالات العامية الموافقة للقواعد ونشرها، والتنبيه على الأخطاء الشائعة، وتوفير المقابل اللغوي لكل المصطلحات الدخيلة، "وإذا أردنا اختصار القول وتركيزه، أكدنا ثلاثة عوامل تخدم قضية تجاوز الازدواجية في التعبير: أولها إعلاء مستوى الفكر والعلم والثقافة وتعميمها في المجتمع. فالمحكية - أي العامية - نظرا لافتقارها إلى القواعد والضوابط، لا تلائم أغراض هذه المناحي العقلية التي تفرض الدقة والانتظام اللذين توفرهما الفصحى. يضاف أن لهذه - بخلاف المحكية - تراثا ثريا في هذه المجالات يؤهلها لأن تعود لتكون لغة فكر حي وثقافة ناشطة. ومن جهة ثالثة،

إن العلم بناء موحدا، ولما كانت المحكية تتوزع لهجات متباينة، فمن الطبيعي أن يتجاوزها العلم إلى ما يضمن وحدة التعبير وانسجامه"(١٤). إن هذا العامل يحتاج إلى تعديل في فكر الشباب، فبدلا من رفض العامية رفضا باتا نلجأ إلى تهذيبها وتنقيحها شيئا فشيئا، إن الموقف يبدو مفتعلا "في إيجاد خصومة لا مبرر لها بين العامية والفصحى مع تجاهل ما بينهما من التلاقي والتكامل المعرفي بدليل ما يوجد لدى طبقة العامة من البسطاء الذين مازلوا يرددون قصائد مغناة لأقطاب الغناء العربي المشهود لهم بالبراعة والأصالة، فكان غناؤهم بالفصيح والعامية يسير في خطين متوازيين"(١٥).

أما طغيان مفردات اللغات الأجنبية عليها فيرجع في حقيقته إلى عدة أمور مجتمعة، ذكرها الطلاب في مجمل حديثهم عن مشاكل العربية، أولها تراجع العرب علميا؛ ومن ثم تخلفت العربية عن ركب لغات العلم، أضف إليه التباطؤ في تعريب المصطلحات العلمية الحديثة، لاسيما في وسائل الاتصال، ولا يجد المواطن العربي سوى المصطلح الأجنبي أمامه للاستعمال فيلجأ إلى تعريبه وتطبيق قواعد العربية عليه، دون وجود بديل عربي، نحو (كومنتات) تعريبا لـ (Comments) بتطبيق قاعدة الجمع بزيادة (ات) على آخر الكلمة. واستخدام (يكنسل) تطبيقا لقاعدة الفعل المضارع في العربية، وكأن أصل المادة اللغوية (كنسل) كما (دحرج) و (زلزل) وهكذا. ولعل دعوة ترجمة العلوم في التعليم تلقى صداها التطبيقي لدى صانعي القرار في الدول العربية، والاقتداء بالتجربة السورية في هذا الشأن(١٦).

إن حركة تعريب العلوم في التعليم العالي قد وجدت من يعارضها قديما وحديثا، فنجد المستشرق لامنس في مطلع القرن العشرين يقول: "وليس عندي أدنى شك في أنه إذا جعل التعليم العالي باللغة العربية تنعزل البلاد العربية شيئا فشيئا عن الحركة العامة؛ إذ تصبح اللغة الوطنية حاجزا منيعا دون مواصلة التقدم"(١٧)، وحديثا نسمع كبار الكتاب يدعون الدعوة نفسها باختلاف الدافع(١٨).

ويلي ذلك مجموعة عناصر متصلة ببعضها البعض مرتبطة بسوء تدريس فنون اللغة العربية، وهو سوء - كما يبدو من إطلاق العبارة وعدم تحديدها لدى الطلاب - يمتد من المراحل الأساسية إلى المرحلة الجامعية، ويتعلق به رأيهم حول صعوبة قواعد العربية، وهو ما يمكن تفسيره أيضا بسوء تدريسها؛ لأن صعوبة المعارف ينبع - في أساسه - إلى سوء عرضها وتنظيمها، لا سيما أن العربية تشارك بقية لغات العالم في ظهور القواعد الشاذة بين مستوياتها، إن لم تكن أقلها جميعا. إن طابع القواعد العربية في أذهان كثيرا من العرب الصعوبة والتعقيد؛ مما يثقل كاهل الناشئ، "بل حتى المتمرس، في استخدام الفصحى تحدثا وإلقاء وكتابة. فثمة استثناءات وشواذ وأحكام تفصيلية متشعبة، لعله كان لها ما يبررها في العهود التي كانت اللغة هي شاغل العلماء الأهم ومصدر الثقافة الأول. أما اليوم فمطالب العلم والثقافة قد تضخمت وتفرعت وهي ماضية في التضخم والتفرع، ولم يعد باستطاعة الطالب أو المشتغل بالعلم والثقافة أن يصرف من الجهد والوقت في إتقان اللغة ما كان يصرفه أسلافه، أو ما هو بحاجة إلى توفيره للتقدم في الحقول الأخرى، وهي الحقول البارزة والملحة في هذه الأيام"(١٩)، وهو أمر ليس بهذا السوء، إن الأمر يخضع فقط لترتيب أولويات القواعد وتدريجها من حيث السهولة والصعوبة، من خلال دراسات حقيقية تحدد المستعمل والشائع في عصرنا من قواعد ومفردات، والتركيز عليها في مراحل التعليم الأولى؛ لأن المشكلة الحقيقية لقواعد العربية تقع في انفصال الواقع اللغوي عن المدروس، إن نظرة في مجموعة من المفردات مثل: روضة- حديقة - بستان - جنة - جُنَينة(٢٠)، نصادف منها في مراحل التعليم الأولى ألفاظ: الحديقة - والبستان، أما الاستعمال فيؤيد كلمة جنينة، وهي كلمة عربية فصيحة، فلم لا تستخدم في التعليم؟ والأمر نفسه ينطبق على قواعد النحو والصرف، ما يؤكد قصور مقررات العربية عن الوفاء باحتياجات العرب واستعمالهم.

أما ضعف الانتماء للعربية والاعتزاز بها فيشير - أكثر ما يشير - إلى فقدان الدافع للتمسك بالعربية؛ مما يدل على خمود القضية في وجدانهم قبل عقولهم، وكذا ابتعاد الجهود الرامية لنهضة العربية عنهم، وهذا ما يجب العمل على تغييره.

إن محاربة العربية من قبل الغرب قد ذكره الطلاب عنصرا مقاوِما للعربية، والقضية تحتاج إلى فيض درس تاريخي لبحثها، وهو ليس مجالنا هنا، لكن لا مفر من إدراك أن القوى الاستعمارية التي أرادت نهب ثرواتنا بالأمس، واستغلال مواردنا المادية والمعنوية لخدمة

مصالحها، تريد غزو ثقافتنا وشخصيتنا اليوم، لاسيما أن أي نهضة إنسانية تبدأ بمعرفة الإنسان بذاته ومزاياه في مواجهة الآخرين، والشخصية العربية التي تحملها لنا اللغة عبر التاريخ بأفكارها وشخصيتها تختلف عن الشخصية الحالية التائهة بين تراث حبيس المكتبات، وحاضر مليء بمختلف المؤثرات المخالفة له ثقافيا. إن محاربة الغرب للعربية وغيرها من اللغات بدأت حين توالت أولى الدعوات إلى العامية(٢١) على يد المستشرقين، وحين نصح المستشرقون بعدم تعريب العلوم في الجامعات العربية، وحين شرعت كل دولة غربية نشر لغتها خارج حدودها لتكوين إمبراطورية لغوية على حساب اللغات المحلية؛ رغبة في بسط نفوذها الثقافي على أكبر قدر من بقاع العالم؛ مما تسبب في موت كثير من اللغات المحلية في إفريقيا وآسيا بغرض استمرار مسلسل الاستغلال لشعوب العالم، في حين أن هذه الدول تأتي في مقدمة أولويتها الحفاظ على لغتها الأم، والتجربة الفرنسية خير مثال على ذلك ممثلة في المنظمة الفرانكفونية(٢٢).

## النتائج والتوصيات

بعد فحص آراء الطلاب المتخصصين في دراسة اللغة العربية في المرحلة الجامعية، وتحليلها. يمكن أن نستخلص عدة أمور:

١-ترتكز أهمية اللغة العربية لدى الطلاب على أنها لغة الإسلام، ومن ثم للحفاظ عليه لابد من الحفاظ عليها.

٢-هذا الدافع الديني - وإن كبر شأنه - لا يكفي لتحرك الشباب للتعامل على مستوى التحديات المواجهة للعربية، ومن ثم لابد من إحياء عناصر الأهمية الأخرى للعربية، وعلى رأسها تحديد الهوية العربية ورسم ملامحها في القرن الحادي والعشرين.

٣-ضرورة إحياء مفهوم الهوية العربية، وربطها بالقومية العربية وفتح مجالات النقاش حول تمييز الهوية العربية عن الهوية الإسلامية، وتحديد نقاط الاتصال والافتراق بينهما، حتى نشحذ جهود كل العرب لخدمة العربية.

٤-أحاطت العينة بأغلب مشاكل اللغة العربية في المجتمع العربي من واقع معايشتهم، وتركز الأمر عندهم في العامية التي أصبحت تسيطر على لغة التعامل في المجتمع، بل صارت تتسرب إلى أساليب الكتابة، ودخول الألفاظ الأجنبية على اللغة العربية، والحقيقة أن جانبا من حل النقطة الأخيرة يقع على كاهل الشباب نفسه، لاسيما في مجال التواصل الاجتماعي ومجالات التقنية الحديثة، فإذا بدأ هذا الشباب بالتعامل بالعربية عبر تلك الوسائل سوف نكون قد خطونا خطوة كبيرة نحو إحلال مفردات العربية محل الأجنبية، والقضية متروكة لحسن عرضها على الشباب، والنجاح الذي سوف تحرزه في إقناعهم.

٥-ضرورة تأسيس برنامج كامل من الأنشطة الجامعية والخبرات الحياتية التي تسمح للطلاب بالاحتكاك مباشرة مع رواد الثقافة في المجتمع العربي، من خلال ندوات أو مؤتمرات أو مؤلفات، حتى يتسنى لهؤلاء الطلاب تبني القضية والاقتناع بها، وتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة، نحو إنكار تدريس اللغات الأجنبية في الجامعة على سبيل المثال، أو تقويم الأفكار التي حادت عن مسارها، نحو تركيز أهمية العربية في أنها لغة الإسلام فحسب، وهكذا.

وسوف تعكف الباحثة على بناء هذا البرنامج من خلال مقررات علم اللغة التطبيقي المقررة على الطلاب في الجامعة، بحيث تستحوذ هذه القضية على قدر طيب يسمح لها بالظهور وسط إيقاع المعرفة السريع.

## الهوامش

(١) جون جوزيف، اللغة والهوية (قومية - إثنية - دينية)، ترجمة د. عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس ٢٠٠٧م، ص٧١ ، ٧٢، ١٥٣.

(٢) السابق ص ٧٠.

(٣) كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، ١٩٧٧م ، ص٢٩.

(٤) د. كريم زكي حسام الدين، اللغة والثقافة - دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، دار غريب، الطبعة الثانية، ١٤٢١ه - ٢٠١١م، ص٧٥.

(٥) د. أحمد درويش، إنقاذ اللغة ... إنقاذ الهوية، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية، مايو ٢٠٠٧م، ص١٧.

(٦) جون جوزيف، اللغة والهوية، ص١٤٠ – ١٤٤.

(٧) خدم غير المسلمين العربية قديما وحديثا، فمن منا ينسى الأخطل شاعر العربية الكبير، وفي القرن الثامن عشر شارك العرب غير المسلمين في النهضة اللغوية العربية، ولاسيما في لبنان، فكان المطران جرمانوس فرحات–على سبيل المثال– في طليعة المعربين والمؤلفين في النحو العربي. مارون عبود، صقر لبنان، المؤلفات الكاملة، المجلد التاسع، دار مارون عبود، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، ص٦١ .

(٨) د. أحمد درويش، إنقاذ اللغة، ص٢٣.

(٩) الحقيقة أن هذه المقولة ليست متفق عليها من جميع دارسي العربية، فنجد كارل بروكلمان المستشرق الألماني الكبير يصف الوضع بتعبير مخالف، إذ يراه علامة على ضيق الأفق، فـ "البدوي قد لاحظ ملاحظة صارمة دقائق الطبيعة المحيطة به، على قدر اتصاله بها شخصيا، ورمز لهذه الدقائق فى تكوين الصحراء، وخصائص الحيوانات، وغير ذلك، بكلمات خاصة" وكأن الأمر يخرج عن دائرة التأمل والعمق في التفكير، فكلما تقدم العقل البشري رأى الاختلافات الدقيقة، وخبر الصفات المميزة لكل موجودات الكون. كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص٣٠.

(١٠) عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة – مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية، مكتبة غريب، ص١٧.

(١١) لنسمع قول الشاعر عبد الرحيم العباسي (ت ٩٦٣ه):

**أرعشني الدهر أي رعش وكنت ذا قوة وبطش**

**قد كنت أمشي ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشي**

وفيه من الركاكة والضعف ما لا يحتاج لبيان. انظر ترجمته في: ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، ١٤١٤ه – ١٩٩٣م. والسخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

(١٢) جون جوزيف، اللغة والهوية، ص١٣٨.

(١٣) على عبد الواحد وافي، فقة اللغة، دار نهضة مصر، ص ١٦٠–١٦١.

(١٤) د. قسطنطين زريق، فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة – سوريا، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.

(١٥) د. عبد الله التطاوي، اللغة والمتغير الثقافي – الواقع والمستقبل، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م، ص١٧ – ١٨.

(١٦) فالتجربة السورية رائدة في هذا المجال، حيث كانت من بداية عهدها معتمدة على اللغة العربية في تدريس العلوم الطبية منذ عام ١٩١٩م رغم المحاولات المضنية للاحتلال الفرنسي.

د. صادق الهلالي، مقالة: التجربة العربية في تعريب العلوم وعلوم الطب، مجلة اللسان العربي، العدد ٤٣، يناير– يونيو ١٩٩٧م، ص٥٧.

(١٧) الأب لامنس، فتاوى كبار الكتاب، ص١٢.

(١٨) من ذلك ما نسمعه من د. جابر عصفور الذي يرى أن الدعوى لتعريب العلوم ووضعها مادة في الدستور المصري خطوة قافزة لمراحل عدة لابد أن تسبقها، وعلى رأسها إنتاج العلم نفسه فلن نستطيع مواكبة الحضارة الغربية بكل تقدمها والعرب في وضع المستقبِل دائما دون إسهام في هذا التقدم. مقال بجريدة الأهرام المصرية بتاريخ ٢٦ ديسمبر ٢٠١٢م، العدد ٤٦٠٤١.

(١٩) د. قسطنطين زريق، الفتاوى، ص١٨٨.

(٢٠) د. عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية لأبنائها وغير الناطقين بها، دار الصحابة للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٣٤ه–٢٠١٣م، ص ٥٢.

(٢١) ذكرت د. نفوسة زكريا أن أولى دعوات إحلال العامية محل الفصحى كانت على يد المستشرق الألماني (ويلهلم سبيتا) في كتابه (قواعد العربية العامية في مصر) عام ١٨٨٠م، فقد انبثقت من هذا الكتاب "الدعوة إلى اتخاذ العامية لغة أدبية، ومن هذا الكتاب انبعثت الشكوى من صعوبة العربية الفصحى، وفي هذا الكتاب أيضا وضع أول اقتراح لاتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة العامية، تلك الحروف التي نودي باستخدامها فيما بعد لكتابة العربية الفصحى" د. نفوسة زكريا، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار الدعوة الإسلامية للنشر والتوزيع، ص٣١–٣٢.

(٢٢) ذكر د. أحمد درويش مفصلا تاريخ المنظمة الفرانكفونية، وهدف إنشائها، والأنشطة التي تقوم بها عالميا؛ لدعم اللغة الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية. كتاب إنقاذ اللغة، ص٢٩ – ٣٤.